مظاهرُ العُمرانِ الاجتماعيّ في بلادِ الشّام
من خلال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ

أ.د.شفيق محمّد الرِّقِب
د. محمّد نايف العمايرة

ملخص

يُعدّ كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ من الكتب الهامّة التي أُلّفت زمن الحروب الصليبيّة، وهو كتاب سجّل فيه المؤلّف، بعد أن تقدّمت به السنّ مذكراته وذكرياته على مدى يقارب ثمانين عاماً، وترمي هذه الدراسة إلى تناول مظاهر العمـــران الاجتماعيّ في بلاد الشام كما تمثّلت في هذا الكتاب، وقد تبيّن أنّ أسامة قد ألقى أضواء كاشفة على كثير من مظاهر الحياة في عصره، وصوّر أحـــوال بعـــض البلدان الشاميّة وحظّها من العمران، وازدهار الزراعة، وتكاثر الثروة الحيوانيّة، كما صوّر قوّة الروح الحربيّة في نفوس القوم، وبطولات بعض الفرسان المسلمين، وبعض الأساليب المتّبعة في تربية الناشئة، بالإضافة إلى تصوير جوانب من أخلاق الفرنجة المحتلّين وطباعهم.

Features of Social Urbanization Great Syria in the Book of Osama Ibn Munqith The Book of Al ?ietibār

Mohamed Naif – Shafek Mohamed

ABSTRACT

Osama Ibn Munqith's book Al ?iᵉtibār is considered one of the important books that were written during the Crusades . In this book Osama who was at an advanced age, wrote his diaries and memories that cover a period of eighty years.

This study tackles the features of socail Urbanization in Great Syria as they were represented in this book . Osama sheds som light on the life features of his time when he described the high level of urbanization in Great Syria represented by flourishing agriculture, augmentation of cattle, the great and hight morale of the people regarding fighting the enemies of Islam, the heroic deeds of Islamic Knights, methods of bringing up new generations, in addition to the description of the Franks' morals and nature.

مقدّمة:

عُني الدّارسون المحدثون بكتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ، ونظروا إليه على أنّه سيرة ذاتيّة لكاتبه، ومن ثمّ فقد كان جلّ اهتمامهم منصبّا على الجوانب التي تتعلّق بحياة أسامة، وكيف أنّه يمثّل مراحل حياته وسمات شخصيّته، كما اهتّموا بالعناصر الفنيّة لهذه السيرة، والجانب السرديّ فيها[1]. كما أفاد منه باحثون آخرون في دراسة صورة الفرنجة في الأدب العربيّ زمن الحروب الصليبيّة[2].

وتكاد تُجمع هذه الدراسات على أنّ أسامة ألقى في كتابه ضوءًا ساطعًا على أحداث عصره وحياة النّاس في بلاد الشام...وصوّر المجتمع العربيّ الإسلاميّ تصويرًا دقيقًا، وأنّ الكتاب وثيقة تاريخيّة نادرة تحيطنا علمًا بالحروبات والعادات والعقليات التي شهدها العصر... في أواخر القرن السادس للهجرة"[3]. ويبدو أنّ هؤلاء الدارسين اكتفوا بمثل هذه الإشارات التعميميّة، ولم يفصّلوا القول في قيمة هذا الكتاب في دراسة مظاهر العمران الاجتماعيّ في ديار الشام في القرن السادس الهجريّ، كما أنّ كاتب هذه السطور لم يقف عند أيّة دراسة متخصّصة في هذا المجال. ومن ثمّ فإنّ هذه الدراسة تسعى إلى دراسة تلك المظاهر، وبيان أهميّة كتاب الاعتبار في دراسة حركة المجتمع الشاميّ وهو يواجه الغزو الصليبيّ على مدى قرن من الزمن.

وينبغي التنويه هنا إلى أنّ كتاب الاعتبار ليس كتاب تاريخ، وإنّما هو مزيج من أدب السيرة وأدب المذكرات وأدب الرحلات، وأنّ مادّته كانت تخضع لمنطق التداعي الحرّ، والسرد الحكائيّ البسيط، واسترجاع الذكريات بعد أنّ مرّ عليها زمن طويل؛ لذا خلا الكتاب من الترتيب الزمنيّ، كما اختلط فيه الجانب الذاتيّ بالجوانب الموضوعيّة، وبعبارة أخرى فإنّ أسامة كان يقدّم الأحداث ملوّنة بمشاعره وانفعالاته ورؤاه الشخصيّة وهو في سنّ الشيخوخة، ومن ثمّ فإنّ هذه الدراسة، ستحاول تخليص الجوانب الموضوعيّة ما أمكن، إلاّ أنّ سطوة الذات في (الاعتبار) ستجعل ذلك المطلب غير متحقق بصورة كاملة. وسيدور البحث في المحاور التّالية:

- أحوال بعض القرى والمدن الشاميّة وحظّها من العمران.
- النزعة التربويّة في كتاب الاعتبار.
- صورة الفرنجة.

أوّلا-أحوال بعض البلدان الشاميّة وحظّها من العُمران:

1-العُمران والسُّكّان:

كانت البداوة هي السمة الغالبة على الأجزاء الجنوبيّة من بلاد الشام، وكان معظم البدو الذين عاشوا قي هذه المنطقة ينتسبون إلى قبيلة طيء العربيّة، وكانت هذه القبيلة قد أقامت لها كياناً مستقلاً في تلك المناطق منذ أوائل القرن الرابع الهجريّ، ومع أنّ الرّملة كانت مركز هذه الإمارة الطائيّة أوّل الأمر، فإنّ الحروب الصليبيّة فكّكت هذه الإمارة ودفعت بقبائلها إلى الأجزاء الجنوبية الشرقية من ديار الشام، وقد التقى أسامة بن منقذ في أثناء اجتيازه بوادي موسى الذي يقع جنوب الأردن اليوم منصور بن غدفل أحد زعماء هذه القبائل، ونعته أسامة بعبارة "وهو صديقي"، وقد مكّنه من اجتياز وادي موسى آمناً[4].

ووصف أسامة الوضع المتردّي لمستوى المعيشة لهذه القبائل البادية، أو كما سمّاهم (العربان)[5]، فقد رأى "بهم من الضرّ أمراً عظيماً: قد يبست جلودهم على عظامهم"[6]، و"لا يأكلون إلاّ الميتة"[7]، ولم يرو الزّاد مدّة طويلة، لذلك فقد كادت "عقولهم تزول من فرحهم"[8] عندما أعطاهم أسامة ممّا يحمله معه من زاد. ومن ثمّ فإنّ هذه القبائل لم تكن لتعفّ عن نهب ما تقع عليه أيديها، والتعرّض للقوافل التي تجتاز المناطق التي تتحرك فيها[9]، بل إن بعضها-تحت وطأة الظروف القاسية- لم تكن تجد حرجاً في أن تعمل دليلاً للفرنجة، ممّا دفع صلاح الدين الأيّوبيّ أن يرسل إليها بعض الحملات لتأديبها[10].

ويستشفّ من كتاب الاعتبار أنّ ديار الشام كانت في مطلع القرن السادس الهجريّ مقسّمة إلى دويلات إثنيّة، فهناك دولة عربيّة لبني عمّار في طرابلس، ودولة عربيّة أخرى لبني منقذ في شيزر، ودولة سلجوقية في دمشق، بالإضافة إلى نشوء الزّنكيّين واستحكام دولتهم في حلب، ثمّ نفوذ الروم في بعض المناطق، عدا الصليبيّين الّذين بسطوا سيطرتهم على كثير من المناطق.[11] وهذا يعني أنّ النّسيج السكّاني لديار الشّام كان متنوّعاً، وكان هذا االنسيج متداخلاً، ومن ثمّ فقد ذكر أسامة بن منقذ في(الاعتبار) صنوفاً متعدّدة من النّاس الذين ينحدرون من أعراق مختلفة وكانوا يقطنون شيزر وما جاورها، أو يفدون إليها، وكان يصف بعض المهامّ الاجتماعيّة التي يقوم بها كلّ منهم؛ ويلاحظ أنّ الأفراد الذين كانوا ينحدرون من أصول عربيّة غالباً ما كانوا ما يقومون بأعمال الفروسيّة. ونقل أسامة صوراً متعدّدة لبطولات هؤلاء الفرسان العرب، وهي صور لا نظفر بها في

كتب التاريخ الرسميّ[12]. ويُضاف إلى العرب الأتــراكُ والتركمــانُ والأكــرادُ والأرمن والرومُ. وكانت هذه الأجناس تقوم بوظائف شتّى؛ فمنهم من كان يعمل في مجال الفروسيّة، ومنهم من كان يمتهن حرفة معيّنة، ومنهم من كان يعمــل فــي الخدمة، لذلك فإنّنا نقف في (الاعتبار) على نماذج بشريّة متنوّعة في سياق حركة المجتمع الشاميّ آنذاك، مثل: الطحّان، ورعاة الأغنام والخيل، والطبّاخ (خــوان سلار)، والمجبّر، والركابيّ، والحلاّجين، والديدبان، والحدّاد، والبرجاسيّ(التاجر)، وخدم الدور، والمماليك الصغار لجرّ الجنائــب وحمــل الســلاح، والفلاّحــين، والنواطير، والعلاّف الّذي يبيع التبن والشعير، وبــائعي الــدوابّ، والفقــاعيّ، والمغربلين، والبناءين الّذين يضربون اللبن[13]، وغير ذلك، ممّا يدلّ على تعــدّد أوجه الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة آنذاك.

ونظراً لتعدد الأجناس في ديار الشام لم تكن اللغة العربيّة وحدها لغة التخاطب اليوميّ، فقد كان الغلمان الأتراك يتكلمون بالتركيّة فيما بينهم، وقد سمع أسامة اثنين منهم يتحدثان، ولم يفهم ما يقولانه[14]، وذكر أسامة موقفاً آخر لجماعة من الفرسان"يتكلّمون بالتركيّ ولا أدري ما يقولون"[15].

وصوّر أسامة بعض الظواهر الاجتماعيّة التي انتشرت انذاك، ومن هذه الظواهر:

أ-**<u>الفروسيّة:</u>** نقل أسامة في كتابه صوراً حيّة للبطولات الإسلاميّة في مواجهة الأخطار المحدقة بديار الشام من الفرنجة وسواهم، فعلى الرغم من بعد المسافة الزمنيّة بين مشاهد البطولة التي عاينها أسامة وبين زمن سرده؛ فإن قوّة تأثيرها في نفسه جعلها حاضرة ماثلة أمام ناظريه، فروى تفاصيلها الدقيقة من حيث زمن وقوعها ومكانه وأسماء الفرسان، وما كان يمور في أنفسهم من انفعالات، وما يصدر عنهم من أصوات ونداءات، وما تعرّضوا له من طعن وضرب، وموضع الضربة وهيئتها، ومدى تأثيرها في نفس متلقّيها. ونقف في الكتاب عند أسماء كثير من الفرسان المسلمين، من ذلك ما رواه عن أنفة الفارس جمعة، وهو من بني نمير[16] كما تحدّث عن فارس آخر يدعى ندى بن تليل القشيريّ[17]، ووصف شجاعته في إحدى الوقعات، ووصف الطعنة التي أصابته، وتحمّله لها[18]. ومن الفرسان المعدودين الذين حكى أسامة جانباً من بطولتهم حمدات الكرديّ الّذي أصرّ على الرغم من كبر سنّه على جهاد الفرنجة[19]، ومنهم نمير العلاّزوريّ "راجل شجاع أيد"، ومحمّد بن سرايا "وهو شابّ شديد أيد"[20]. وقد شارك بعض العلماء

المسلمين في جهاد الفرنجة، وروى أسامة بطولة اثنين منهم، فعندما قصد الغزاة دمشق أهلها لملاقاتهم " وفي جملتهم الفقيه الفندلاويّ والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحوليّ...فلمّا قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن:"ما هؤلاء الروم؟"، قال "بلى" قال: "فإلى متى نحن وقوف؟" قال:"سر على اسم الله تعالى"، فتقدّما قاتلا حتّى قُتلا، رحمهما الله، في مكان واحد" [21].

ويطول بنا المقام لو تتبعنا أخبار الفروسيّة الإسلاميّة في كتاب الاعتبار، وهي في جملتها تصوّر حقيقة الاستعداد الحربيّ لدى المسلمين في ديار الشام، وهم يواجهون الخطر الصليبيّ آنذاك.

ب- <u>الحرمنة أو اللصوصيّة:</u> ولعلّ انتشارها كان نتيجة للحرب من ناحية، وتطاولها حوالى مائتي سنة من ناحية أخرى، وما ترتّب على ذلك من ظهور فئات العاطلين عن العمل الذين شرّدتهم الحروب، واضطرتهم إلى النهب والسلب[22]، وقد ورد في كتاب (الاعتبار) أخبار مختلفة عن هؤلاء الحراميّة الذين كانوا يعترضون سبل القوافل، ويهاجمون الضياع[23]، ويستدلّ من بعض هذه الأخبار أنّهم كانوا يتخذون شكل العصابات والتحرّك في مجموعات كبيرة، فقد قال في أحد الأخبار:" لا تمضوا، فإنّ في طريقكم في الموضع الفلانيّ عقد حراميّة في ستين سبعين رجلاً يأخذونكم"[24].

وكانت تتخذ –أحيانا– طابعاً منظّما من المسلمين ومن الفرنجة على حدّ سواء، فقد اعتمد وليّ الأمر آنذاك على بعض أبناء القبائل العربيّة لسلب غلاّت العدوّ، وجمع الأقوات واختطاف جنوده وهم أحياء[25] ، كما كانت ترافق الجيوش–أحياناً– فئات من البدو والنهّابة والصعاليك لنهب الزروع والغلاّت [26]، كما كان الفلاّحون في الديار المحتلّة يدلّون حراميّة المسلمين على ضياع الفرنجة[27].

ج–<u>الاعتقاد بالكرامات:</u> فقد تكاثرت هذه الكرامات بعد القرن الخامس بسبب الظروف السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة آنذاك، حيث عانت الأمّة من الضعف والخور والانكسار، فلجأت إلى الاعتقاد بقوى أخرى غير منظورة لتساعدها في حلّ مشكلاتها، وتحقيق التوازن الداخليّ في نفس صاحب الكرامة أو راويها أو متلقّيها، وممّا يقوّي ذلك أن الأخبار الكراماتيّة التي رواها أسامة أخبار تلقّاها شفاهاً، ممّا يشير إلى أنّ حلقات السمر كانت تتخذ من الكرامات مادّة أساسيّة في جلساتها ممّا يعكس طبيعة العقليّة العربيّة، وبعض أنماط التفكير التي سادت في تلك العصور. وأورد أسامة في(الاعتبار) طائفة من أخبار الصّالحين وكراماتهم، وهي

تقوم في جملتها على إيراد الأفعال الخارقة للمألوف بأسلوب حكائيّ بسيط يستميل المتلقّي لما فيه من إثارة وتشويق، وتقوم بنية الكرامة في الكتاب على ثلاثة عناصر رئيسيّة هي: راوٍ ثمّ عقدة ثمّ المدد الإلهيّ الذي يمثّل الحلّ. وقد تنوّعت هذه القدرات الخارقة التي تمتّع بها أصحاب الكرامات، ويمكن تصنيفها إلى ما يلي:

-**العلاج الخارق:** ويتمثّل في قدرة بعض الأفراد على شفاء الآخرين من الأمراض من غير استخدام أيّة وسيلة من وسائل الطبّ المعروفة، وثمّة حكايتان في (الاعتبار) عانا فيهما المريضان من مرض عضال، الأوّل كان قيّم مسجد عليّ بن أبي طالب في نواحي الأنبار، وكان في "وجهه سلعة قد غطّت أكثر وجهه"[28] ، فرأى عليّاً في منامه، وشكا له ما به، فاستيقظ وقد شفي من مرضه. والثاني كان مفلوجاً، فرأى عليّاً في منامه، فأمره بالنهوض فنهض قائماً على رجليه [29].

- **الاستشعار أو التحسّس عن بعد:** ويتمثّل في تجاوز حدود المكان والقدرة على اكتساب معلومات عن جسم بعيد من غير تدخّل حاسّة من الحواسّ، مثل الحادثة التي رواها عن الإمام أبي عبدالله محمّد البصريّ، وقد حضرته امرأة تسأله أن يستردّ لها كتاب مهرها الّذي ضاع منها ، فقال لها ما أفعل حتّى تأتيني بحلاوة، فاستغرب الحضور طلبه، فألحّ على المرأة أن تحضر له الحلاوة، فخرجت وجاءته بما طلب "فأخذ القرطاس وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتّى فرغ القرطاس، فإذا هو كتاب صداق المرأة الّذي فقدته...فاستعظم من حضره ذلك، فقال: كلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثر منه"[30]. وحادثة رجل من أهل حماة يعمل في بستان مرّ به رجل غريب فتوضّأ، فأخبره أن صاحب البستان قد توفي، وكان في الحجّ، وأنّه كان ممّن صلّى عليه، "فخرجوا في أثره ليستفهموا منه فرأوه على بعد لا يمكنهم لحاقه، فعادوا..فكان الأمر كما كان" [31].

الاستجلاب: وهو القدرة على استجلاب أشخاص بعيدين وبسرعة كبيرة من غير استخدام أيّة وسيلة نقل مرئيّة، كما في الحادثة التي رواها عن عبد الله بن ميمون الحمويّ، فأوصى أنّه إذا مات أن يخرجوا به إلى الصحراء "ويطلع إنسان على الرابية التي تشرف على المقابر، وينادي: يا عبدالله بن القبيس، مات عبدالله بن ميمون فأحضره وصلّ عليه، فلمّا مات فعلوا ما أمرهم به، فأقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف من الجانب الذي نادى منه المنادي، وجاء حتّى صلّى عليه، والناس قد بهتوا لا يكلّمونه، فلمّا فرغ انصرف راجعاً من حيث جاء"[32] .

-**تقديم العون والمساعدة من قوّة غيبيّة غير مدركة حسّاً:** وهنا نجد أسامة ينسب وقوع الكرامة لنفسه، فقد أصابه تعب شديد وهو يجتاز الصحراء في طريق

هربه من مصر إلى الشام، وأشفى على الهلاك، فنزل إليه رجل فأمسك بيده حتّى أنقذه، ويعلّق أسامة على ذلك قائلاً: " ولا والله ما أدري من هو ولا عدت رأيته... وما كان ذلك الّذي أعانني إلاّ ملكاً رحمني الله تعالى، فأغاثني به"[33].

-**كرامات الأمكنة:** وقد تكون الكرامة لمكان ما، كما في حديثه عن الشقّ الذي في رقيم أصحاب الكهف، وهو شقّ لايستطيع العبور منه الإنسان إذا كان مولوداً لغير رشدة، وقد جرّب أسامة نفسه ذلك، وكان معهم " عبد أسود ديّن كثير الصلاة، أدقّ ما يكون من الرجال وأذبّهم، فجاء إلى ذلك الموضع، وحرص بكلّ حرص على الدّخول، فما قدر يدخل، فبكى المسكين..." [34] .

د- مكانة المرأة: اهتمّ أسامة بن منقذ بأخبار النّساء وأحوالهنّ في عصره، وأورد نماذج نِسْويّة متعدّدة كان لها دورها في المجتمع الشاميّ آنذاك، مثل الأسيرة، والنّدّابة، والساحرة، والعابدة، والطبّاخة، والمربيّة، والجارية [35] غير أنّ النموذج الأكثر دوراناً في الكتاب هو نموذج (المرأة المقاتلة)؛ فقد ضربت المرأة الشيزريّة بسهم وافر في صدّ الأعداء الّذين كانوا يهاجمون شيزر من الإسماعيليّة الباطنيّة والروم والفرنجة، فعندما هاجم الإسماعيليّة شيزر وأراد سنان الدولة شبيب بن حامد ابن عمّ أسامة الفرار من الحصن بما يمكنه حمله من متاع وأثاث دخل عليه الدّار إنسان "عليه زرديّة وخوذة ومعه سيف وترس، فلمّا رآه أيقن بالموت، فوضع الخوذة، وإذا هي أمّ ابن عمّه ليث الدولة يحيى"[36] ، فوبّخته على ما فعله قائلة: "بئس ما تفعل تخلّي بنات عمّك وأهلك للحلاّجين وتروح؟"[37]، فعاد عمّا أراد وخرج للقتال، وصار من الفرسان المعدودين. كذلك فقد تلثّمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدّ أسامة، و"أخذت سيفاً وخرجت إلى القتال"[38]. وأعجب أسامة بنخوة أمّه في ذلك اليوم، وجعلها أشدّ من نخوات الرجال، لأنّها أخذت ابنتها إلى مكان حصين، وحملت معها السلاح، ووقفت الأمّ تحرسها من الباطنيّة، فإذا شعرت أنّ الخطر محدق بها رمتها إلى الوادي، فتراها قد ماتت ولا تراها "مع الفلاّحين والحلاّجين مأسورة"[39] . بل إنّ بعض النّساء المسلمات كنّ يُغرقن أنفسهن إذا وقعن في سبي الفرنجة [40]. كذلك شاركت المرأة الشاميّة في جهاد الفرنجة بصور شتّى؛ فقد قتلت امرأة في كفر طاب زوجها عندما رأته يتعاون مع الفرنجة، ويدلّهم على عورات المسلمين [41]. وعندما هاجم الفرنجة شيزر خرج النّاس للتصدّي لهم، وخرجت مع النّاس امرأة، وأسرت ثلاثة من الفرنجة، وحجزتهم في بيتها، ثمّ دعت قوماً من جيرانها وقتلوهم [42] .

هـ-**ونقل أسامة لنا في كتابه (الاعتبار) صوراً من حياة القوم في جدّهم ولهوهم**، وحربهم وسلمهم، وأفراحهم وأحزانهم،؛ فقد صوّر ألهيات الكبراء ولا سيّما الصيد واللعب بالشطرنج[43]، وصوّر ترف الطبقات الغنيّة والنعيم الذي كانت تعيش فيه[44]، ووصف بعض مجالس لهوهم[45]، كما أشار إلى احتفال الناس بليلة النصف من شعبان، وإحيائها بالصلاة وقراءة القرآن[46]، ووصف بعض الحمّامات العامّة في معرّة النعمان وصور وكيفيّة دخول الناس لها، واستخدامهم لمرافقها[46]. وذكر أسماء بعض الملابس التي كان يرتديها علية القوم[47]، والملابس التي يرتديها الرجل ليلة عرسه[48]، والحليّ التي تتزيّن بها العرائس[49]، وأشار إلى اتّخاذهم الحمام الهوادي في مراسلاتهم[50]، وروى بعض الملح والفكاهات التي كانوا يتداولونها فيما بينهم[51]. كما صوّر أخطار بعض الحركات المتطرّفة[52].

2-النشاط الاقتصاديّ (التجارة والزراعة):

على الرغم ممّا تعرضت له ديار الشام من تدمير وتخريب على أيدي الغزاة الصليبيّين فإنّ هذه الديار لم تفقد نشاطها الاقتصادي، فقد ظلت قوافل التجارة تتردّد بين المدن الشاميّة، وبين مدن الشام والعراق[53]، وبين المدن الإسلاميّة والمدن الخاضعة لسيطرة الفرنجة، وكانت هذه القوافل-خوفاً من اللصوص- تسير-أحياناً- تحت الحماية العسكريّة، فيرافقها الفرسان حتّى تبلغ مأمنها[54]. وكانت قوافل التجّار(البرجاسية) في مأمن من الحرب، فلا يتعرّض لها المحاربون من المسلمين والفرنجة، فقد ذكر أسامة أنّه أرسل صاحباً له إلى أنطاكية في شغل، فتعلّقت به امرأة إفرنجيّة تحرّض على قتله، فرآه فارس منهم، فجاء وقال للمرأة: "ما لك ولهذا المسلم؟ قالت هذا قتل أخي عرس..فصاح عليها وقال هذا رجل برجاسيّ(أي تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال"[55]، وقريب من هذا ما ذكره ابن جبير في رحلته، حيث قال: "ومن أعجب ما يُحدّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم، دون اعتراض عليهم"[56] . وقد عاد ابن جبير إلى الحديث عن ذلك في موضع آخر من رحلته، فقال متعجباً: "ومن أعجب ما يُحدّث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين"[57]، "وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة"[58].

ويستشفّ من كتاب (الاعتبار) ازدهار الزراعة في الأجزاء الشمالية من بلاد الشام، نظراً لخصوبة الأراضي، وتوفر مياه الأنهار، وغزارة الأمطار[59] بالإضافة إلى وفرة الأيدي العاملة من الفلاّحين(العرب والأرمن والروم) الذين كانوا يعملون في الإقطاعيّات الواسعة لقاء أجر معلوم[60]. ويمكن أن نستخلص من كتاب (الاعتبار) أهم المحاصيل الزراعيّة التي كانت تزرع في المروج الواسعة شمال بلاد الشّام آنذاك، وعلى رأسها الغلّة (القمح)، والزيتون، والقطن، والكرمة، وأنواع الفواكه[61] . بالإضافة إلى البساتين الصغيرة داخل القرى والمدن، والغابات الكثيفة التي كانت تستغلّ في صناعة الأخشاب [62] .

ونعمت بلاد الشام في القرن السادس الهجريّ بثروة حيوانيّة كبيرة، وهي تشمل الحيوانات الدّاجنة من خيل وبغال وجمال وبقر وأغنام، كما تشمل بعض الحيوانات والطيور البريّة، وقد ذكر أسامة أنواعاً كثيرة من الحيوانات البريّة في معرض حديثه عن تجاربه في الصيد في شيزر وغيرها، وغالبا ما كانت تتكاثر هذه الحيوانات في الأزوار المنتشرة حول الفرات[63] ، ومن هذه الحيوانات الغزلان، ومنه (الغزال الآدميّ، وهو غزال كبير)، والأرانب، وحمر الوحش، واليحامير، والسنجاب، والأراويّ، ومعزى الجبل، والثعالب، والخنازير، والفهود [64]. وقد كانت الحيوانات المفترسة مثل الأسود والذئاب والضباع ما زالت تعيش في الآجام والغياض آنذاك. ومن الطيور الدرّاج، والكركيّ، والحجل، والزرخ، والعيمة وهي من طير الماء، والزرّراق، والباز، والحمام، والسّمان، والسمند، والإوز، والحرجل، والشواهين [65]. يُضاف إلى ذلك الثروة السمكيّة الكبيرة التي كانت تتكاثر في الأنهار، وقد وصف أسامة الأساليب العجيبة التي كان يستخدمها صيّادو السمك في الصيد، وكيف أنّه كان يخرج إلى أماكن الصيد، ليستمتع بما يراه من هذه الأساليب، " فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على الصيد بالبزاة"[66] كما يقول.

وثمّة مصدر آخر لهذه الثروة الحيوانيّة يتمثّل في الغنائم التي كان يحرزها المسلمون من الفرنجة، فعندما دخل المسلمون مرج أفامية ساقوا "منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم"[67] .

وذكر أسامة حكايات متفرّقة تبيّن اهتمام القوم بتربية الحيوانات، واعتناءهم بها، ورعايتهم لها، وحدبهم عليها، ولا سيّما حيوانات الصيد منها؛ فقد ذكر أسامة أنّه أصبح يوماً بحماة "وقد حضر القرّاء والمكبّرون وخلق عظيم من أهل البلد" ،

فسأل صاحب حماة عن الميّت، فأخبره "أنّه الباز اليحشور"[68]، وأنّه عمل له تابوتاً وجنازة وقبراً، لأنّه–كما يقول–يستحقّ ذلك. وذكر أسامة أنّه كانت في دارهم فهدة لها جارية تخدمها، وتسرّح جسمها بالمشط، " ولها في جانب الدّار قطيفة مطويّة تحتها حشيش يابس..." [69].

3– شذرات ثقافيّة:

يُستدلّ من كتب الرحّالة الّذين زاروا بلاد الشام في القرن السادس الهجريّ ازدهار الحركة الفكريّة في هذه الديار، فقد تكاثرت المدارس فيها تكاثراً ملحوظاً، فقلّما خلت مدينة من المدن الّتي زارها ابن جبير منها، ويتفاوت عددها بحسب عظم المدينة وأهميتها. فقد كان في حلب نحو ستّ مدارس، وفي حماة ثلاث مدارس، وفي دمشق نحو عشرين مدرسة بالإضافة إلى دار للحديث[70]. وقد هيّأ وليّ الأمر آنذاك الأجواء الملائمة للطلب والتّحصيل، فأجروا على المعلمين الرواتب الواسعة، وقدّموا للطلاب ما يلزمهم من الأموال والأطعمة والأكسية؛ لذلك حثّ ابن جبير النّاشئة من أهل المغرب إلى القدوم إلى بلاد الشام طلباً للعلم؛ " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرّب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأوّلها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمّة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصّر إلاّ من يدين بالعجز والتّسويف، فذلك من لا يتوجّه هذا الخطاب عليه، وإنّما المخاطب كلّ ذي همّة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلميّ، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيّها المجتهد بسلام... "[71].

ويبدو أنّ أسامة لم يكن في كتابه (الاعتبار) معنيّاً برصد مظاهر الحركة الثقافيّة في المدن الّتي زارها، غير أنّنا نجد بعض الإشارات إلى أسماء بعض العلماء في العلوم الدينيّة واللغويّة، مثل الفقيه الفندلاويّ والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي[72]، والفقيه برهان البلخيّ، وكان مقيماً بدمشق[73]، والرئيس أبو تراب حيدرة، وكان شيخ أسامة "الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربيّة"[74]، والشيخ أبو عبدالله الطليطليّ النحويّ متولّي دار العلم في طرابلس، "وكان في النحو سيبويه زمانه"[75].

وتحدّث أسامة عن اهتمام والده بنسخ المصاحف، فقد كان "نسّاخاً يكتب خطّاً مليحاً... وكان لا ينسخ سوى القرآن"[76]، وقد نسخ ختمات كثيرة، وتفنّن في

رسمها، منها "ختمة كبيرة كتبها بماء الذهب وكتب فيها علوم القرآن: قراءته، وغريبه، وناسخه ومنسوخه، وتفسيره، وسبب نزوله وفقهه بالحبر والحمرة والزرقة، وترجمه بالتفسير الكبير"[77]. كذلك فقد كان لوالد أسامة "اليد الطّولى في النّجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن الكريم" [78].

غير أنّ أسامة أبدى اهتماماً ملحوظاً بالعلوم الطبيّة، ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة العصر وما فيه من حروب، استدعت وجود الأطباء لمعالجة الجرحى والمرضى، ومن هؤلاء الأطبّاء يوحنّا ابن بطلان؛ مارس الطبّ في حلب وشيزر وأنطاكية، وكانت له عيادة في حلب، وكان مشهوراً "بالمعرفة والعلم والتقدّم في صنعة الطبّ"[79]، و" له إصابات عجيبة في الطبّ"[80]، وقد ذكر أسامة في كتابه أسماء بعض المرضى الذين عالجهم هذا الطبيب، والأمراض التي كانوا يعانون منها، وكيفيّة معالجتها[81]. ومن هؤلاء الأطبّاء الشيخ أبو الوفاء تميم، وقد عالج أسامة نفسه من غلبة الصفراء[82]. ومن هؤلاء طبيب نصرانيّ يقال له ثابت، وقد أرسله عمّ أسامة إلى الفرنجة عندما كتب زعيمهم إلى عمّ أسامة أن يُنفذ إليه طبيباً ليداوي مرضى من أصحابه [83].

وترتّب على كثرة الحروب آنذاك، وما يقع فيها من جرحى أن كثر الجرائحيّون في بلاد الشام، وأشار أسامة في مواضع متفرّقة من كتابه إلى هؤلاء الجرائحيين ومجالات اختصاصهم، ومن هؤلاء زيد الجرائحيّ، وقد عالج والد أسامة من طعنة في يده قطعت عصبها فاسترخت، ووصف أسامة العصب المقطوع وصفاً دقيقاً، فقد كان "أبيض كأنّه حصاة من حصا الفرات" [84].

وكان بعض الجرائحيين مختصّاً في إصابات العين؛ فقد أصيب عزّالدين عمّ أسامة في جفن عينه الأسفل، فسقط الجفن جميعه، وبقي معلّقاً، والعين تلعب لا تستقرّ، "فخاطها الجرائحيّ وداواها فعادت كحالها الأوّلة لاتعرف العين المطعونة من الأخرى" [85].

وثمّة جرائحيّون آخرون مختصّون بالجراح التي تصيب البطن، فقد طُعن صديق لأسامة " تحت سرّته فشقّ جوفه قدر أربع أصابع، فوقع موضعه...وتردّد على الجرائحيّ فصلح..."[86].

وتحدّث أسامة عن جرائحيين يعالجون الجراحات الخطيرة التي تصيب الوجه، فقد أصيب أحد الفرسان بضربة من الفرنجة في وجهه "فقطع وجهه إلى أذنيه، وقد

استرخى نصف وجهه صار على صدره..." فخاط الجرائحيّ وجهه وداواه، والتحم ذلك الجرح[87].

وقد يُضطر الجرائحيّون إلى العلاج بالبتر أحياناً؛ فقد طلعت في رجل أحد رجال بني منقذ حبّة " تخبّثت، فتناثرت أصابعه، وأنتنت رجله، فقال له الجرائحيّ: ما لرجلك إلاّ القطع وإلاّ تلفتَ" [88].

ومن الأساليب التي كان يستخدمها الجرائحيّون الفصاد، ونقل أسامة موقفاً طريفاً عن أحد المرضى الذي كان يتغيّر لونه، ويرتعد إذا حضر الفاصد، غير أنّ بعض المرضى كان يموت بعد الفصاد [89].

كما أشار أسامة إلى بعض المجبّرين منهم "رجل صانع يقال له يحيى صانع في التجبير"، كذلك تحدّث عن بعض الأطباء البيطريين الذين اهتموا بعلاج الحيوانات والطيور، ومن هؤلاء "بازيار طويل اليد في إصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم"، وبازيار آخر كان "صانعاً مجوّداً في إصلاح الشواهين"[90].

***

ثانياً–النزعة التربويّة في كتاب الاعتبار:

يستشفّ من كتاب الاعتبار كثيرٌ من الأساليب التربويّة التي كان ينتهجها القوم آنذاك في تنشئة أبنائهم وتربيتهم، وتنمية الجوانب المتعدّدة لشخصيّاتهم، وإعدادهم لنمط معيّن من أنماط الحياة عن طريق التعليم والتدريب والتهذيب والممارسة، ولم ترد هذه القيم على نحو مباشر، وإنّما جاءت في سياق عرض أسامة لتجاربه الشخصيّة، واهتمام ذويه بتأديبه، وفي سياق المبادئ التي استخلصها من معاناته في الحياة. وسأقف هنا عند أبرز الأساليب التربويّة التي يمكن استنتاجها من الكتاب:

– **التعليم:** ذكر أسامة أنّ والده عُني منذ طفولته بتحفيظه القرآن الكريم وتعليمه القراءة والكتابة، وقد تولّى أبوه نفسه ذلك، وذكر أسامة حادثة تدلّ على مدى متابعة والده له ولإخوته، واهتمامه بتعليمهم، فقد كانوا إذا خرجوا معه للصيد وهم صبيان، يأمرهم قائلا: " تفرّقوا، كلّ من عليه قراءة يقرأها"[91] ، فيتفرّقون، ثمّ يستدعيهم بعد مدّة ويسألهم كم قرأ كلّ واحد منهم. بل كان المقرئون يرافقونهم في رحلاتهم، فيقرؤون مرّة، وينشدون مرّة، ويغنّون مرّة[92].

وقد استعان والده ببعض المؤدّبين في تعليمه؛ ومن هؤلاء الشيخ العالم أبو عبدالله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة، الذي درس عليه الفقه والحديث

وعلوم العربية، كما كان يفاوضه أحياناً في شؤون القتال[93]، والشيخ أبو عبدالله الطليطليّ، وقد قرأ عليه النحو قريباً من عشر سنين، كما عمل هذا الشيخ على تأديب أمراء بني منقذ وتثقيفهم [94].

– **التجربة والممارسة:** ومن الأساليب التي كانت متّبعة في تربية الأبناء التدريب العمليّ والتجربة والممارسة، وفي هذا يقول أسامة بن منقذ في سياق حديثه عن تجاربه في مكافحة الأسود والضواري: " وما رأيتُ الوالد، رحمه الله، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مهما كان يرى فيّ وأرى من إشفاقه وإيثاره لي" [95]، ويضرب أسامة حوادث متعدّدة تمثّل ذلك، فقد هاجم الفرنجة شيزر ذات يوم، فيأمره أبوه أن يتبعهم بمن معه قائلاً: "اتبعهم بمن معك، وارموا أنفسكم عليهم، واستخلصوا رهائنكم" [96]. ويقول في حكاية أخرى: " ومرّة كنت معه، رحمه الله...وإذا حيّة عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار، فوقف يبصرها، فحملت سلّمًا كان في جانب الدّار أسندته تحت الحيّة وصعدتُ إليها، وهو يراني فلا ينهاني"[97]. وكان أسامة عرضة للاختبار في كلّ لحظة لتفقّد جاهزيّته وتيقّظه؛ فقد ذكر أنّ عمّه عزّالدين كان يتفقّد منه حضور فكره في القتال ويمتحنه بالمسألة، ويروي حوادث متعدّدة امتحن فيها عمّه حضور قلبه، وسلامة فكره في المواقف القتالية [98].

وذكر أسامة في كتابه كثيراً من المعلومات والمهارات التي اكتسبها بالتجربة والممارسة، من ذلك ما خبره من أمر الصيد والقنص والجوارح؛ "فالبراذين بالوحش أشبه ممّا هي بالخيل" [99]، ورأى من نوع من " الوزّ...حميّة وشجاعة كحميّة الرجال وشجاعتهم"[100]، و"منايا الحيون مختلفة الألوان"[101]، "ولو كان للخنزير ظفر وناب مثل الأسد كان أشدّ بأسًا من الأسد" [102]، وأنّ في الخيول "الصبور كالرجال وفيها الخوّار"[103]، وأنّ "الأسدَ كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان" [104]. وهدته خبرته في القتال إلى أنّ نوعاً من الجراح يبرأ بالفصاد [105]، و"أنّ على من وصل إلى الطعن أن يشدّ يده وذراعه على الرّمح إلى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمله في الطعنة، فإنّه متى حرّك يده بالرمح أو مدّها به لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية" [106]، وأنّ على الإنسان ألاّ يثق بشجاعته ويعجب بإقدامه؛ فقد هزم راجل من الإفرنج أسامة وصديقه جمعة النميريّ، وهو من الفرسان

المعدودين[107]، و"أنّ العقل هو الّذي يحمل على الإقدام على السيوف والرمـــاح والسهام أنفة من موقف الجبان وسوء الأحدوثة...وكلّ أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل" [108]، وأنّ "النصر من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتـــدبير، ولا بكثرة نفير ولا نصير"[109].

– **القدوة الحسنة:** أعجب أسامة بوالده إعجاباً كبيرًا، ولعلّه اتخذه مثلاً أعلى يقتدي به، ويتأسّى خطواته؛ فهو لايخفي إعجابه به، وتنويهه بسجاياه وأخلاقه، كما في قوله: "... وما رأيت مثل والدي، رحمه الله، فما أدري كنت أراه بعين المحبّة كما قال القائل:(وكلّ ما يفعل المحبوب محبوب)، ما أدري أكان نظري فيه على التحقيق "[110] ثم يسرد أسامة مجموعة من الوقائع ليدع القارئ يستنتج صحّة رأيه في والده، من ذلك قوله: " وكان، رحمه الله، مع ثقل جسمه وكبر سنّه، وأنّـــه لا يزال صائمًا يركض نهاره كلّه...ونحن معه أربعة أولاده نتعب ونكلّ، وهـــو لا يضعف ولا يكلّ ولا يتعب[111]"، بل إنّه أحياناً كان يجنح إلى إعلاء صورة أبيه، فيقرنه بطريقة غير مباشرة بالعظمة التاريخيّة ممثّلة بشخصيّة خالد بن الوليد، كما يُستشفّ من قوله فيه: " وكان الوالد، رحمه الله، كثير المباشرة للحرب وفي بدنه جراح هائلة، ومات على فراشه"[112] .

– **النّصح والإرشاد:** وكتاب الاعتبار عامّة –كما يُستدلّ من اسمه– يؤدّي غاية تربوية أخلاقيّة دينيّة، فجميع الأحداث التي ذكرها في كتابه ترمي إلى هدف واحد هو استنتاج العبرة ممّا يرويه أو يحكيه، لذلك كانت معظم هذه الأخبـــار تنتهـــي بعظات أو عبرات متشابهة الدلالة، وإن جاءت مختلفة الصياغة، وهي تتّصل أساساً بالتعجّب "من كيفيّات تصريف الخالق لشؤون خلقه ومخلوقاته لإثبات حكمته وتعليق المصير الإنسانيّ والأفعال البشريّة بهذه الحكمة مطلقاً "[113]؛ فأسامة لا يفتأ يردّد في كتابه: "فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير"، و"كانت أسباب السلامة لما جرت به المشيئة من العجب"،"فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف شاء"، "فسبحان من إذا قدّر السلامة أنقذ الإنسان من لهاة الأسد، فذلك حقّ لا مثل"، "فعجبنا من ذلك الجبّار الّذي قتل الأسد وقتلته عقرب مثل الإصبع، فسبحان الله القادر النّافذ المشيئة في الخلـــق"، "فتبارك الله القادر على ما يشاء" [114].

وانتهى بأسامة الـــتأمل في المصير الإنسانيّ إلى استخلاص عبـــرة كبـــرى لخّصها في قوله: "فلا يظنّ ظانّ أنّ الموت يقدّمه ركوب الخطر، ولا يؤخّره شدّة

الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر"[15]، و"أنّ ركوب أخطار الحروب لا يُنقص مدّة الأجل المكتوب"[116]، وقد ظلّت هذه الفكرة مسيطرة على المادّة المسرودة في الكتاب، لذا كانت هذه المادة في تشابهها أو اختلافها وتنوّعها ترمي إلى تأكيدها وإثباتها.

****

ثالثا- صورة الفرنجة:

نقل أسامةُ بن منقذ صوراً متفرقة لبعض العادات ومظاهر السلوك اليومي التي كان يمارسها الفرنجة. ففي هذا المجمتع الذي لم يعرف أوقات السلم إلا لماماً كان للفرسان بحكم دورهم الحربي نفوذ كبير، وكان ذلك -أحياناً- على حساب السلطة المدنية التي يمثلها الملك آنذاك، "فالفارس أمر عظيم عندهم"[117]، وهم "أصحاب الرأي والقضاء والحكم"[118]، "ولا يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الافرنج"[119]أن يغيّر أو ينقض حكماً أبرموه. بل إن الفرنجة كانوا يقدّرون الفروسية بصورة عامة، فعندما اجتمع أسامة بن منقذ بأحد ملوكهم أُعجب الملك به لأنه "فارس عظيم"[120]، مما أثار استغراب أسامة، لأنه ليس من بني جنسهم.

ووصف أسامةُ عدداً من ألعابهم ووسائل لهوهم، وقد اتخذ بعضها طابع التدريب على الفروسية، فقد حضر في طبرية عيداً من أعيادهم "وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح"[121]، وخرجت معهم عجوزان فانيتان سابقوا بينهما. وقد تكون المبارزة -أحياناً- وسيلة للفصل بين المتخاصمين، فمن غلب حُكم له وفاز.[122]

وراجت تجارة الخمر لدى الفرنجة، وكانت تُباع بأسعار غالية، وقد رأى أسامة بن منقذ كيفية الترويج لها وبيعها في أسواق نابلس، حيث يأخذ أحد الرجال "في قنينة من النبيذ وينادي عليه، ويقول: فلان التاجر قد فتح بثّيّة (برميل كبير من الخشب) من هذا الخمر، من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا. وأجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة"[123].

وعاين بعض الكتّاب المسلمين الشجاعة التي كان يتحلى بها الفرنجة، وإقدامهم على المواقف الصعبة دون هيبة، ومن هؤلاء أسامة بن منقذ الذي قال فيهم: فالإفرنج "ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة".[124] ويتعجب أسامة من اتصاف الفرنجة بهذه الصفة، فيقرنهم بالبهائم في قوة التحمل، وذلك إذ يقول:

"سبحان الخالق! إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبّح الله تعالى وقدّسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل"[125].

وجرّد الفرنجةُ بعضَ العصابات لقطع الطرق على المسلمين واعتراض قوافلهم وسفنهم، فقد دأب أحد لصوصهم على اعتراض حجاج المغاربة، وتمكن من أخذ أحد مراكبهم وفيه نحو أربع مئة نفس من الرجال والنساء[126] وذكر أسامة بن منقذ أن جماعة من لصوصهم أخذت قافلة للمسلمين عند بعلبك[127] بل إن أسامة نفسه لم يسلم من القرصنة البحرية التي كان يمارسها بعض الفرنجة، فبينما كانت أسرته عائدة من مصر إلى الشام اعترض الفرنجة المركب الذي كان يُقلّها، ونهبوا ما فيه [128].

ووصم أسامةُ الفرنجة بالتخلف والجهل، فقد سخر في غير ما موضع من كتاب الاعتبار منهم، ونقل صوراً تدل على تدنّي مستواهم الحضاري، من ذلك حديثه عن عجائب طبهم، فقد نقل عن طبيب عربي نصراني يقال له ثابت دخل البلاد المحتلة، أنهم أحضروا له فارساً قد طلعت في رأسه دملة، وامرأة قد لحقها نُشاف (كلمة فارسية بمعنى البله)، فعالجهما وشَفيا، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: "هذا ما يعرف شيء يداويهم"، وقال للفارس: "أيمّا أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟" قال: "أعيش برجل واحدة". فأمر الطبيب الإفرنجي بإحضار فأس، وطلب من أحد الفرسان ان يضرب رجل المريض، فضربه، فمات المريض من ساعته. أما المرأة فزعم أن "الشيطان قد دخل رأسها، فأخذ الموسى وشقّ رأسها صليباً وحكّه بالملح، فماتت في وقتها. ويعلّق الطبيب العربي على هاتين الحادثتين ساخراً: "فجئت وقد تعلّمت من طبّهم ما لم أكن أعرفه" [129].

وعاين أسامةُ من الفرنجة أموراً لا تخرج "من رأس عاقل"[130]، فقد "عسكّر الإفرنج على بانياس في جمع كثير، ومعه البطرك، وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها يتولّى خدمتها شمّاس منهم، وقد فرش أرضها بالحلفاء والحشيش، فكثرت البراغيث، فوقع لذلك الشمّاس أن يحرق الحلفاء والحشيش لتحترق البراغيث، فطرح فيه النار، وقد يبس، فارتفعت ألسنتها، وعلقت بالخيمة، فتركتها رماداً" [131].

وجرّد أسامةُ الفرنجة من القيم الخُلقية، فهم قوم ليس عندهم "شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدّث ومضى".[132] وأورد أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار

عدة حوادث تدل على انعدام النخوة والغيرة لدى الفرنجة [133]، وقد علّق عليها مستهجناً: "فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم، ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة" [134].

ونشأت بين المسلمين والفرنجة علاقات اجتماعية نتيجة للاحتكاك والاتصال بين الطرفين في أوقات السلم. ويُستشفّ من النثر الفنيّ نمطان من هذه العلاقات: الأول قام بين الفرنجة والمسلمين الذين لم تخضع ديارهم لسيطرة الغزاة، والثاني نشأ بين الفرنجة والمسلمين في البلاد الإسلامية المحتلة. وكان النمط الأول من العلاقات يقوم بين القادة وكبار القوم من الطرفين، وغالباً ما يتخذ صورة المجاملة والصداقة، وهو محكوم بتحقيق المصالح من ناحية، وميزان القوى من ناحية ثانية، لذلك كان عرضة للتبدل والتغير. فقد كانت تربط بين بعض زعماء بني منقذ وملك القدس (فلك) الخامس علاقات شخصية أهّلت أسامة بن منقذ لأن يسعى في الصلح بين الملك المذكور وأمير دمشق جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري، وأن يتردد في السفارة بينهما.[135] وقد أتاحت الزيارات المتكررة التي قام بها أسامة إلى الأرض التي انتزعها الفرنجة أن يتجوّل فيها، ويخالط الفرنجة، ويقيم علاقات شخصية مع بعض فرسانهم، فقد ذكر أسامة أن أحدهم لازمه، وأنس به، وانعقدت بينهما المودة والمعاشرة، وصار الفارس يدعوه "أخي"[136]، كذلك فقد طلب الفارس من أسامة أن يرسل معه ابنه إلى أوروبا، "يُبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية".[137] وأقام أسامة صداقات مع فرسان الداويّة الذين قال عنهم في كتاب الاعتبار "وهم أصدقائي". [138] وكانت مثل هذه العلاقات الشخصية بين (دنكري) أمير أنطاكية وبين عم أسامة عز الدين بن منقذ. ومن طريف ما يذكره أسامة عن ذلك أنه بعد صلح عُقد في إثر قتال بين الطرفين أنفذ صاحب أنطاكية إلى عز الدين يطلب منه حصاناً ليسابق به، فأرسل إليه الحصان ومعه رجل كرديّ اسمه (حسنون)، فسابق به "بين يدي دنكري... فسبق الخيل المجراة كلها" فأعجب الحاكم الصليبي بالفارس المسلم، وخلع عليه، فانتهز حسنون الفرصة، وطلب منه أن يخلي سبيله إذا وقع أسيراً بين يديه فيما سيُستقبل من الحروب، فأعطاه الأمان، ولكنه أمان لا قيمة له، فقد أسر حسنون في إحدى الوقعات، و "عذّبوه أنواع العذاب"[139]، وسملوا عينه اليمنى، كما أمر (دنكري) صاحب أنطاكية. وعندما تولي (بغدوين) إمارة إنطاكية توطّدت العلاقات بينه وبين بني منقذ ليد كانت لوالد أسامة وعمّه عليه. ويبدو أن هذه العلاقات كانت قوية إلى حد جعل أسامة يقول في سياق حديثه عنها:"وصار أمرنا في أنطاكية نافذاً".[140] وكان بعض الفرنجة يستعين ببني منقذ

لقضاء بعض أمورهم، فقد بعث صاحب المنيطرة إلى عم أسامة كتاباً يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه.[141] وكان بعض مسلمي شيزر يدخل إلى البلاد المحتلة لقضاء أشغالهم، فقد دخل أحدهم "أنطاكية في شغل له وابنه معه"، وكان الابن مريضاً، فرآه رجل "إفرنجي، فسأله عنه، فقال: هو ولدي"، فوصف له دواء وشفي الابن.[142]

وكان المسلمون يتسرّون بالسبايا الصليبيّات ويتهادونها فيما بينهم، فقد ذكر أسامة بن منقذ أنه صار إلى دار والده "عدة من الجواري... فرأى منهنّ جارية مليحة شابة" فأهداها إلى صاحب قلعة جعبر فوافقته واتخذها لنفسه". وكانت علاقات الزواج التي تمت بين الطرفين –وهي نادرة جداً– غير ناجحة، وثمة حادثة أوردها أسامة تبيّن ذلك؛ فقد تزوج حاكم قلعة جعبر من امرأة افرنجية، فأنجبت له ولداً تولى أمر القلعة من بعده، ولكن أمه ظلت تتحين الفرصة حتى تمكنت من الهرب إلى قومها، وتزوجت من رجل إسكاف.[143]

وقد كان لهذه العلاقات التي نشأت بين المسلمين والفرنجة آثار في طبائع الفرنجة وأخلاقهم وبعض عاداتهم إلى الحد الذي جعل أحد مؤرخيهم يقول بعد ربع قرن من السيطرة الأولى: "إن أولئك الذين كانوا غربيين أصبحوا الآن شرقيين، ومن كان رومياً أو فرنجياً قد تحول في هذه البلاد إلى جليلي أو فلسطيني، ومن أتى من الرايم أو شارتر أصبح الآن مواطناً في صور أو أنطاكية، وقد نسينا الآن أمكنة ولادتنا، فهي غير معروفة لدى الكثير منا.[144] وقد عبّر أسامة بن منقذ، في عبارة موجزة عن تأثر بعض الفرنجة بأخلاق المسلمين وعاداتهم، وذلك إذ يقول: "ومن الإفرنج قوم قد تبلّدوا (أصبحوا بلديين) وعاشروا المسلمين، فهم أصلح من القربى العهد ببلادهم".[145] ويقول في موضع آخر: "فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين تبلّدوا وعاشروا المسلمين"[146] .

وقد تعدّدتْ أوجهُ تأثر الفرنجة بالمسلمين، من ذلك أن بعضهم دخل في الإسلام، فقد كان من جملة الغنائم التي غنمها بنو منقذ في إحدى الوقعات "امرأة عجوز، ومعها بنت لها شابة حسنة الخلق وابن مشتد، فأسلم الابن وحسن إسلامه فيما يُرى من صلاته وصومه.. فلما طال مقامه زوَّجه الوالد (أي والد أسامة) بامرأة من قوم صالحين.. فرزق منها ولدين"[147]، إلا أن هذا الإفرنجي تنصّر ثانية عندما عاد إلى البلاد التي تخضع لحكم أبناء ملته. وعرف بعض الفرنجة اللغة العربية، فقد ذكر أسامة بن منقذ مواقف تدل على معرفة بعض الفرنجة اللغة

العربية، من ذلك أن طائفة منهم دخلت شيزر، فسألت البواب باللسان العربي: "أي شيء اسم هذا البلد؟".[148] وثمة حالات مفردة تدل على إعجاب بعض الفرنجة بطرائق المسلمين في إعداد الطعام، وامتناعهم عن أكل الخنزير، واتخاذهم طاهيات عربيات، فقد دُعي أسامة بن منقذ إلى "دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أوّل خروج الإفرنج.. فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة، ورآني متوقفاً عن الأكل، فقال: كل طيب النفس، فأنا ما آكل من طعام الافرنج، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهنّ"[149].

وبعد،

فقد كان أسامة بن منقذ شاهداً على المجتمع الشاميّ في القرن السّادس الهجريّ، إذ أتاحت له تجاربه الواسعة، وامتداد عمره على مدى هذا القرن أن يرصد حركة هذا المجتمع وهو يواجه الغزو الصليبيّ، ويسجّل عناصر القوّة والضعف في هذا المجتمع، والعناصر الفاعلة فيه، ويقف عند القوى التّي كانت تحرّك فئات النّاس على تنوّع أعراقهم وانتمائهم وطبيعة أعمالهم.

وعلى الرغم ممّا تعرضت له ديار الشام من تدمير وتخريب على أيدي الغزاة الصليبيّين فإنّ هذه الديار -كما يُستدّل من الكتاب- لم تفقد نشاطها الاقتصادي، فقد ظلت قوافل التجارة تتردّد بين المدن الشاميّة، وبين مدن الشام والعراق ، وبين المدن الإسلاميّة والمدن الخاضعة لسيطرة الفرنجة. كما ازدهرت الحياة الزراعيّة، وتنوّعت المحاصيل التي كانت تُفلح في شمال بلاد الشام، بالإضافة إلى تكاثر الثروة الحيوانيّة.

وبيّنت الدراسة وجود عدد من الأطبّاء المهرة في بلاد الشام في القرن السادس الهجريّ، ولا سيّما في مجال الجراحة، وذكر أسامة ضروباً من الجرائحيين، وكيفيّة معالجتهم أنواع الجراح التي يتعرّض لها الجند في ميادين القتال.

وصوّر أسامة بعض الظواهر الاجتماعيّة التي انتشرت آنذاك ولا سيّما الفروسيّة، وقدّم في كتابه نماذج فريدة للبطولات الإسلاميّة في مواجهة الغزو الصليبيّ، واستطاع بحكم تجربته ومعايشته للفرسان ومعاينته لهم في ميادين القتال أن يستبطن مشاعرهم، وما كان ما يمور في نفوسهم من انفعالات إيجابيّة وسلبيّة وهم يرون الموت رأي العين. كما أبدى أسامة اهتماماً ملحوظاً بالنّساء في عصره، وتحدّث عن بطولات بعضهن، والشجاعة التي كنّ يتحلّين بها في مواجهة الأعداء، كما تحدّث عن عدد من الأدوار التي كانت تقوم بها المرأة آنذاك.

وَيُستَشَفُّ من الكتاب بعض الأساليب التي كان يستخدمها القوم في تربية

أبنائهم، وكان لطبيعة العصر أثر كبير في الاهتمام بالجوانب التي تنمّي المشاعر الإسلاميّة وروح الشجاعة والإقدام.

وعلى الرّغم من العلاقات الّتي أقامها أسامة–لسبب أو لآخر– مع الفرنجة، فإنّه كان على وعي عميق بأنّهم يشكّلون خطراً كبيراً على الإسلام: عقيدة وحضـــارة وإنساناً، وأنّ التعايش معهم غير ممكن، ومن ثمّ خرج من تجاربه معهم بخلاصة مؤدّاها: " وهم –لعنهم الله– جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم" (150) .

المصادر والمراجع:

1-انظر: إحسان عبّاس، فنّ السيرة (بيروت،د.ت) 138؛ شوقي المعاملي، السيرة الذاتيّة في التراث(القاهرة 1989)212؛ عبدالله محمد الغزالي، المكوّنات السرديّة في السيرة الذاتية: كتاب "الاعتبار" نموذجًا،المجلّة العربيّة للعلوم الإنسانيّة(جامعة الكويت،عدد97، السنة25، شتاء2007) 99؛ جليلة الطرطير بلحاج، الاعتبار لأسامة بن منقذ نموذجاً في الكتابة السيرذاتيّة العربيّة القديمة، حوليّات الجامعة التونسيّة (الجامعة التونسيّة، عدد37، 1995) 266؛ سعود عبد الجابر، صورة أسامة بن منقذ من خلال سيرته الذاتيّة في كتاب الاعتبار، المجلّة العربيّة للعلوم التطبيقيّة-العلوم الإنسانيّة (جامعة العلوم التطبيقيّة، عمان، المجلد3، العدد3، أيار 2000).113.

2- شفيق الرقب، دراسات اجتماعيّة في الأدب الأيّوبيّ والمملوكيّ(عمّان، 2008).63.

3- سعود عبد الجابر،مرجع سابق: 115؛ جليلة بلحاج، مرجع سابق: .268.

4- أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، طبعة جديدة عن النسخة التي حرّرها الدكتور فيليب حتّي(بيروت،1999)27، وسيشار إلى المصدر لاحقا باسم"الاعتبار".

5-الاعتبار:.11.

6-الاعتبار:.12.

7-الاعتبار.12.

8-الاعتبار.12.

9-الاعتبار:.27.

10-سبط ابن الجوزيّ، مرآة الزّمان في تاريخ الأعيان (حيدر أباد،1951) 8/ 1/ 293؛ أبو شامة المقدسيّ، الروضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصلاحيّة، تحقيق محمد حلمي(القاهرة، 1962) 2/1: 527

11-انظر الاعتبار: 15،40، .52،221

12-انظر الاعتبار: 36-37، 57.

13-الاعتبار: 105، 107، 114، 117، 124، 127، 139، 141، 145، 148، 149،

158، 160، 163، 177، 184، 223 .

14-الاعتبار: 100.

15-الاعتبار: 151.

16- الاعتبار: 36-37، 57.

17-الاعتبار:.143

18- الاعتبار: 42.

19- الاعتبار:.51

20- الاعتبار:.91

21- الاعتبار:.95

22- إحسان عبّاس، بلاد الشام في عهد أتابكة والأيوبيين 490-650(منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنيّة-جامعة اليرموك،1998) 321.

23- الاعتبار: 70 ،153، 154.

24- الاعتبار:.79

25- العماد الأصفهانيّ، سنا البرق الشامي، اختصار الفتح البنداريّ، تحقيق فتحية النبراوي (القاهرة، 1979) 163؛ بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الشيال(القاهرة، 1964) 193.

26- الاعتبار:40، 151.

27- الاعتبار: 138.

28- الاعتبار: 173.

29- الاعتبار: 178.

30- الاعتبار: 171.

31- الاعتبار: 173.

32- الاعتبار: 171.

33- الاعتبار: 93-94.

34- الاعتبار: 15.

35- الاعتبار: 71، 115، 123، 126، 140، 186، 280 .

36- الاعتبار: 124.

37- الاعتبار: 124.

38- الاعتبار: 125.

39- الاعتبار: 125.

40- الاعتبار: 150.

41-الاعتبار: 128.

42- الاعتبار: 129.

43- الاعتبار: 106، 145 ،202.

44- الاعتبار: 19،25، 29، 204.

45- الاعتبار: 127.

46- الاعتبار: 136-137.

47- الاعتبار: 11.

48- الاعتبار: 49.

49- الاعتبار: 180.

50- الاعتبار: 31.

51- الاعتبار: 51.

52- الاعتبار: 160-162.

53- الاعتبار: 182.

54- الاعتبار: 57، 70، 79،84، 182.

55- الاعتبار: 141.

56- الاعتبار: 260.

57- الاعتبار: 271.

58 الاعتبار : 273.

59- الاعتبار: 86، 87، 89، 90،92، 100، 142 ،157، 205.

60- الاعتبار: 153،50،31، 82، 151.

61- الاعتبار: 40، 43، 151، 157.

62- الاعتبار: 142.

63- الاعتبار: 106، 222، 226.

64- انظر الاعتبار: 93، 193، 194، 197، 202، 207، 223.

65- انظر الاعتبار: 68، 193،84، 196، 200، 205، 210، 217.

66- الاعتبار: 219.

67- الاعتبار: 58، وانظر 76.

68- الاعتبار: 206.

69- الاعتبار: 208.

70-ابن جبير، أحمد بن جبير بن سعيد: رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار(القاهرة ط2 1992) 357، 324، 321، 317.

71-ابن جبير، الرحلة: 360؛ ولمزيد من التّفصيل حول المدارس في بلاد الشّام والتّعليم فيها انظر:ابن شدّاد، عزّ الدّين محمّد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشّام والجزيرة(القسم الخاصّ بحلب)،تحقيق يحيى عبّارة(دمشق1991)1/1: 239، والقسم الخاصّ بدمشق، تحقيق

سامي الدّهّان(دمشق1956)2: 199؛النّعيميّ، عبدالقادر، الدّارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني(دمشق1948)1: 116 ،219،340 وغيرها؛ حسن شميساني، مدارس دمشق في العصر الأيّوبيّ(بيروت1983) صفحات متفرّقة من الكتاب.عماد الدّين خليل، النّشاط العلميّ في دولة نور الدّين محمود زنكي،مجلّة المورد،المجلّد التّاسع، العدد الثّالث(بغداد1980)97؛ أمينة البيطار،التّعليم في دمشق في القرن السادس الهجريّ، مجلّة آداب الرافدين، العدد11(بغداد1979)39)

72- الاعتبار: 95.

73- الاعتبار: 140.

74- الاعتبار: 215.

75- الاعتبار: 208.

76- الاعتبار: 53.

77- الاعتبار: 53.

78- الاعتبار: 56.

79- الاعتبار: 183.

80- الاعتبار:.184

81- الاعتبار: 183-185.

82- الاعتبار: 185.

83- الاعتبار: 132.

84- الاعتبار: 52.

85- الاعتبار: 55.

86- الاعتبار: 114.

87- الاعتبار: 163.

88- الاعتبار: 146.

89- الاعتبار: 146، 147.

90- الاعتبار: 66، 114، 200، 211.

91- الاعتبار: 201.

92- الاعتبار: 220.

93- الاعتبار: 85.

94- الاعتبار: 208-209.

95- الاعتبار: 103.

96- الاعتبار: 103.

97- الاعتبار: 103.

98- الاعتبار: 100-102.

99- الاعتبار: 215.

100- الاعتبار: 217.

101-الاعتبار: 222.

102- الاعتبار: 224.

103- الاعتبار: 96.

104- الاعتبار: 106.

105- الاعتبار: 33.

106- الاعتبار: 42.

107- الاعتبار: 57.

108- الاعتبار: 85.

109- الاعتبار: 147.

110- الاعتبار: 199.

111- الاعتبار: 213.

112- الاعتبار: 51، وانظر: 213،199، 53،51، 56.

113- الاعتبار: 273.

114-انظر الاعتبار: 42، 52، 69، 84، 109. 150.

115- الاعتبار: 163.

116- الاعتبار: 162.

117- الاعتبار: 88.

118- الاعتبار: 87.

119- الاعتبار: 88.

120- الاعتبار: 88.

121- الاعتبار: 138.

122- الاعتبار: 138.

123- الاعتبار: 139.

124- الاعتبار: 64.

125- الاعتبار: 132.

126- الاعتبار: 81.

127- الاعتبار: 79.

128- الاعتبار: 35.

129- الاعتبار: 133.

130- الاعتبار: 132.

131- الاعتبار: 86.

132- الاعتبار: 135.

133- انظر الاعتبار: 136-137.

134- الاعتبار: 137.

135- الاعتبار: 81.

136- الاعتبار: 132.

137- الاعتبار: 132.

138- الاعتبار: 134.

139- الاعتبار: 66.

140- الاعتبار: 121.

141- الاعتبار: 121.

142- الاعتبار: 134.

143- الاعتبار: 130.

144- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسليّ(عمّان، 1990)218. وانظر: ر.سي.سميل، فنّ الحرب عند الصليبيين، ترجمة محمد وليد الجلاد(دمشق، 1985)79-80.

145- الاعتبار: 140.

146- الاعتبار: 134.

147- الاعتبار: 130.

148- الاعتبار: 56، وانظر للمقارنة: ابن واصل، مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب، تحقيق جمال الدين الشيال(القاهرة،1957)2: 141، 4: 244-245.

149- الاعتبار: 140.

150- الاعتبار: 130.